تحليل بعض آراء كريج كونسيدن من خلال كتابه: إنسانية محمد من خلال وجهة نظر نصرانية

Analyzing Some of Craig Considine's Views Through His Book: The Humanity of Muhammad: a Christian View

أ. أحمد سعد الأحمدي: باحث دكتوراه في تخصص الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية الدعوة والعقيدة، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

Mr. Ahemed Al-Ahmadi: *PhD Researcher in Da'wah and Islamic Culture, College of Da'wah and Creed, Islamic University of Madinah, Kingdom of Saudi Arabia.*

Email: ahmed.s.alahmadi@gmail.com

Doi: https://doi.org/10.56989/benkj.v6i3.1796

تاريخ الاستلام:	2026-01-11	تاريخ القبول:	2026-02-03	تاريخ النشر	2026-03-01

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل رؤية كريج كونسيدن في كتابه «إنسانية محمد من خلال وجهة نظر نصرانية»، من خلال منهج تحليلي نقدي يستند إلى قراءة مضامين الكتاب ومقارنتها بالمصادر الإسلامية والتاريخية، للكشف عن ملامح الصورة الإنسانية للنبي محمد ﷺ في الخطاب النصراني المعاصر وبيان أبعادها الفكرية والحضارية. وتتناول الدراسة ثلاثة محاور رئيسة: واقعة وفد نجران بوصفها نموذجًا للحوار الديني القائم على الاحترام والتفاهم، وموقف النبي ﷺ من العنصرية كما يتجلى في إبراز مكانة بلال بن رباح رضي الله عنه تأكيدًا لمبدأ المساواة، ثم مفهوم طلب العلم باعتباره قيمة مركزية في الإسلام مرتبطة بالإيمان وبناء الإنسان. وقد أظهرت الدراسة أن كونسيدن قدّم طرحًا يتسم بقدر من الموضوعية والإنصاف في إبراز البعد الإنساني العالمي في سيرة النبي ﷺ، وأن هذه القيم تمثل أرضية مشتركة يمكن أن تسهم في تعزيز الحوار بين الأديان وترسيخ مبادئ العدالة والتعايش. وتوصي الدراسة بتكثيف الأبحاث المقارنة في مجال الصورة المتبادلة بين الأديان، وتفعيل القيم الإنسانية المشتركة في الخطاب الأكاديمي والثقافي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: كريج كونسيدن، إنسانية النبي، الحوار بين الأديان، وفد نجران، مناهضة العنصرية، المساواة في الإسلام، طلب العلم في الإسلام

Abstract:

This study aims to analyze Craig Considine's perspective in his book "The Humanity of Muhammad from a Christian Perspective" through a critical analytical approach based on examining the book's content and comparing it with relevant Islamic and historical sources. The study seeks to explore the humanistic image of Prophet Muhammad (peace be upon him) in contemporary Christian discourse and to highlight its intellectual and civilizational dimensions. It focuses on three main themes: the event of the Najran delegation as a model of interfaith dialogue grounded in mutual respect and understanding; the Prophet's stance against racism, exemplified through the status of Bilal ibn Rabah as a practical affirmation of equality; and the concept of seeking knowledge as a central value in Islam closely linked to faith and human development. The study concludes that Considine presents a relatively fair and balanced portrayal emphasizing the universal human dimension of the Prophet's life, and that these values provide a shared foundation for strengthening interfaith dialogue and promoting justice and coexistence. The study recommends expanding comparative research on mutual religious representations and activating shared human values within contemporary academic and cultural discourse.

Keywords: Craig Considine; Humanity of Prophet Muhammad; Interfaith Dialogue; Najran Delegation; Anti-Racism; Equality in Islam; Seeking Knowledge in Islam.

المقدمة:

شكّلت الدراسات الاستشراقية عبر القرون مجالًا واسعًا للتفاعل الفكري مع الإسلام، وقد تباينت اتجاهاتها بين قراءات اتسمت بالتحامل وسوء الفهم، وأخرى سعت إلى قدر من الموضوعية والإنصاف. ومع تطوّر الدراسات الدينية المقارنة في العصر الحديث، برزت كتابات تحاول إعادة النظر في الصورة النمطية عن الإسلام ونبيّه محمد ﷺ، وتقديمه في إطار إنساني عالمي يتجاوز الأحكام المسبقة. ومن بين هذه الكتابات كتاب المستشرق الأمريكي كريج كونسيدن «إنسانية محمد من خلال وجهة نظر نصرانية»، الذي يعرض فيه رؤيةً تسعى إلى إبراز البعد الإنساني في سيرة النبي ﷺ، مع التركيز على القيم المشتركة بين الإسلام والمسيحية، مثل الحوار، والمساواة، واحترام الكرامة الإنسانية، وتعظيم شأن العلم.

ويكتسب هذا الكتاب أهميته من كونه صادرًا عن باحث مسيحي معاصر، يقدّم قراءة إيجابية لشخصية النبي ﷺ في سياق ثقافي غربي كثيرًا ما ارتبطت فيه صورة الإسلام بالجدل وسوء الفهم. ومن هنا تنطلق هذه الدراسة لتحليل بعض آراء كونسيدن الواردة في كتابه، وتقويمها في ضوء المصادر الإسلامية المعتبرة، مع الوقوف على منهجيته في العرض والاستدلال، وبيان مدى دقة معالجته للقضايا التي تناولها، لاسيما ما يتصل بوفد نجران، ومناهضة العنصرية، والحث على طلب العلم. وتسعى الدراسة كذلك إلى إبراز أثر هذا الطرح في تعزيز الحوار بين الأديان، وفي تصحيح بعض التصورات الخاطئة عن الإسلام في الخطاب الغربي المعاصر.

مشكلة الدراسة:

تنبع مشكلة الدراسة من الحاجة إلى تقويم الطروحات الاستشراقية المعاصرة التي تتناول شخصية النبي محمد ﷺ من منظور إنساني، وبيان مدى اتساقها مع المصادر الإسلامية الأصيلة. فعلى الرغم من الطابع الإيجابي الذي يميّز طرح كريج كونسيدن، فإن التساؤل يظل قائمًا حول مدى دقة عرضه للأحداث التاريخية، وسلامة استدلاله بالنصوص، وعمق فهمه للسياق العقدي والحضاري للإسلام. كما تبرز إشكالية مدى تأثير هذه القراءة في تشكيل صورة الإسلام في الوعي النصراني والغربي عمومًا؟ وهل تمثل تحولًا حقيقيًا في الخطاب الاستشراقي أم تظل قراءة جزئية تحتاج إلى مزيد من التحليل والنقد؟

تندرج تحت مشكلة الدراسة مجموعة من الأسئلة على النحو الآتي:

- ما المنهج الذي اعتمده كونسيدن في عرض إنسانية النبي محمد ﷺ، وما خصائصه العلمية؟
- كيف تناول حادثة وفد نجران، وهل جاء عرضه منسجمًا مع الروايات التاريخية الإسلامية الموثوقة؟

- إلى أي مدى نجح في بيان موقف النبي ﷺ من العنصرية وترسيخ مبدأ المساواة بين البشر؟
- كيف عالج مفهوم طلب العلم في الإسلام، وهل قدّمه في سياقه العقدي والتشريعي الصحيح؟
- ما أوجه القوة في تحليلاته، وأين يمكن رصد جوانب القصور أو التعميم؟
- ما أثر هذا الطرح في تعزيز الحوار الإسلامي–المسيحي وفي تصحيح الصورة النمطية عن الإسلام في الفكر الغربي المعاصر؟

منهج البحث:

تعتمد هذه الدراسة على المنهج الوصفي، القائم على عرض الموضوعات كما وردت في كتاب كونسيدن عرضًا علميًّا منظمًا[1]، مع توثيقها وربطها بسياقها التاريخي والفكري، كما تستند إلى المنهج النقدي الذي يقوم على التقويم والتحليل والموازنة[2]، بهدف تصحيح ما يحتاج إلى تصحيح، وبيان أوجه القوة أو القصور في الطرح.

أهداف الدراسة:

- تحليل رؤية كريج كونسيدن لمفهوم إنسانية النبي محمد ﷺ، والكشف عن الأسس الفكرية والمنهجية التي بنى عليها طرحه.
- تقويم آرائه في ضوء المصادر الإسلامية الأصلية والروايات التاريخية المعتبرة، مع بيان مدى دقته في العرض والاستدلال، ومواضع الاتفاق أو الاختلاف.
- إبراز الجوانب الإنسانية في السيرة النبوية كما عرضها الكتاب، ولا سيما ما يتصل بالحوار الديني، ومناهضة العنصرية، وتعظيم قيمة العلم، وبيان امتداد هذه القيم في البناء الحضاري الإسلامي.
- دراسة أثر الطرح الإيجابي في كتاب كونسيدن على تصحيح الصورة النمطية عن الإسلام في الفكر النصراني والغربي المعاصر.
- بيان مدى إسهام هذه الرؤية في تعزيز ثقافة الحوار والتفاهم والتعايش بين أتباع الأديان، وإمكانية توظيفها في الخطاب الأكاديمي والحضاري المعاصر.
- الإسهام في تطوير الدراسات المقارنة المتعلقة بالصورة المتبادلة بين الإسلام والمسيحية، من خلال تقديم نموذج تحليلي يجمع بين الوصف والنقد العلمي الرصين.

---

[1] دويدي، رجاء (1421هـ). البحث العلمي: أساسياته النظرية وممارساته العملية. ط1، بيروت: دار الفكر، ص183.

[2] الأنصاري، فريد (1417هـ). أبجديات البحث في العلوم الشرعية. ط1، الدار البيضاء: منشورات الفرقان، ص98.

أهمية موضوع الدراسة:

تتجلّى أهمية هذه الدراسة في جملة من الاعتبارات العلمية والفكرية والحضارية، من أبرزها:

1. ارتباطها بسيرة أشرف الخلق، نبينا محمد ﷺ، بما تمثّله شخصيته من مكانة مركزية في الإسلام، وما تثيره دراستها من أبعاد عقدية وأخلاقية وحضارية.
2. إبرازها لسماحة الإسلام ورقيّ تعاليمه، من خلال الوقوف على القيم الإنسانية التي رسّخها النبي ﷺ، وبيان قدرة هذه القيم على معالجة كثير من الإشكالات الدينية والاجتماعية المعاصرة.
3. تناولها لرؤية مستشرق معاصر قدّم طرحًا إيجابيًا حول إنسانية النبي ﷺ، مما يتيح قراءة مغايرة لبعض الاتجاهات الاستشراقية التقليدية، ويسهم في فهم تحوّلات الخطاب الغربي تجاه الإسلام.
4. دراستها لواقعة وفد نصارى نجران بوصفها نموذجًا مبكرًا للحوار الديني القائم على الاحترام والتعايش، وما تحمله من دلالات في سياق العلاقات الإسلامية–المسيحية.
5. تسليطها الضوء على موقف النبي ﷺ من العنصرية وترسيخه لمبدأ المساواة بين البشر، كما عرضه كونسيدن، بما يعكس البعد العالمي للرسالة الإسلامية.
6. إسهامها في دعم الدراسات المقارنة والحوار بين الأديان، وتعزيز الفهم المتبادل القائم على الموضوعية والإنصاف العلمي.

أولا التعريف بالمستشرق كريج كونسيدن Craig Considine:

كريج مايكل كونسيدن (Craig Michael Considine) هو عالم اجتماع أمريكي وباحث أكاديمي متخصّص في علم الاجتماع الديني ودراسات الأديان المقارنة، ويعمل محاضرًا في قسم علم الاجتماع بجامعة رايس (Rice University) في الولايات المتحدة الأمريكية. حصل على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع من كلية ترينيتي بجامعة دبلن في إيرلندا عام 2015، حيث انصبّ اهتمامه البحثي على قضايا التعددية الدينية، والعلاقات بين المسلمين والمسيحيين، وصور التمثّل المتبادل بين الأديان في المجتمعات الغربية.

تركّز أبحاث كونسيدن على دراسة الإسلام في السياق الأمريكي والغربي عمومًا، مع اهتمام خاص بقضايا الهوية الدينية، والاندماج الاجتماعي، والتفاعل بين الأقليات الدينية والمجتمع الأوسع. كما يعالج في كتاباته موضوعات العِرق والتمييز، وظاهرة الإسلاموفوبيا، وتحليل الخطاب الإعلامي والثقافي المتعلق بالإسلام، ساعيًا إلى تفكيك الصور النمطية وتعزيز الفهم المتبادل بين أتباع الديانات المختلفة.

ويمتاز كونسيدن باتجاهه نحو إبراز الجوانب الإنسانية المشتركة بين الإسلام والمسيحية، والدعوة إلى الحوار البنّاء القائم على الاحترام المتبادل. وقد نشر عددًا من الكتب والأبحاث الأكاديمية

عن دور نشر جامعية مرموقة، تناول فيها موضوعات علم الاجتماع الديني، والحوار بين الأديان، وصورة الإسلام في الغرب، مما جعله من الباحثين المعاصرين الذين يسهمون في إعادة تشكيل الخطاب الأكاديمي حول الإسلام في البيئة الغربية[1].

المبحث الأول: رأي المستشرق كونسيدن في وفد نصارى نجران

يتناول كريج كونسيدن في كتابه حادثة قدوم وفد نصارى نجران إلى النبي محمد ﷺ بوصفها نموذجًا بارزًا للتسامح الديني والحوار الحضاري في الإسلام المبكر. ويبرز في عرضه أن النبي ﷺ استقبل الوفد استقبالًا كريمًا، وأتاح لهم فرصة عرض معتقدهم ومناقشته في إطار من الاحترام المتبادل، بعيدًا عن الإكراه أو التعصب. ويرى كونسيدن أن هذه الواقعة تمثل شاهدًا تاريخيًّا على انفتاح النبي ﷺ على أتباع الديانات الأخرى، واستعداده للحوار القائم على الحجة والبرهان.

ومن أبرز ما يستند إليه كونسيدن في تأكيد البعد الإنساني في هذه الحادثة إشارته إلى ما ورد في كتب السيرة من أن النبي ﷺ سمح لوفد نجران بأداء صلاتهم في مسجده بالمدينة، حين حان وقت عبادتهم، معتبرًا ذلك دلالة واضحة على احترام حرية المعتقد، وإقرارًا عمليًّا بالتعايش الديني في المجتمع الإسلامي الناشئ. ويقدّم هذه الحادثة بوصفها سابقة تاريخية تعكس مبدأ قبول الآخر، وتُظهر أن المسجد النبوي لم يكن مجرد مكان عبادة للمسلمين فحسب، بل فضاءً للحوار والتلاقي.

وتبرز أهمية هذا الطرح في كونه صادرًا عن باحث مسيحي معاصر، يرى في هذه الواقعة تجسيدًا لقيم التسامح والتعددية، ومؤشرًا على إمكانية بناء علاقات إيجابية بين المسلمين والمسيحيين في الحاضر، استنادًا إلى نموذج نبوي أصيل.

يعرض كريج كونسيدن حادثة وفد نصارى نجران بأسلوب سردي مؤثر، فيذكر أن قائدًا مسلمًا دعا نصارى نجران إلى بلاده، فلبّوا الدعوة، وكان ذلك أول لقاء رسمي بين الجانبين، حيث جرت مناقشات دينية وسياسية اتسمت – في وصفه – بالجدية والاحترام، واتفق الطرفان على كثير من القضايا، مع إقرار كلٍّ منهما بحق الآخر في الاختلاف في بعض المسائل العقدية. ويرى كونسيدن أن العبارة الأدق لوصف ذلك اللقاء هي «الاحترام المتبادل». ويضيف أن النصارى لما حان وقت صلاتهم ولم يجدوا كنيسة قريبة، أذن لهم القائد المسلم بالصلاة في مسجده، قائلًا: «أنتم أتباع الإله الواحد الحق... تفضلوا بالصلاة داخل مسجدي، كلنا إخوة في الإنسانية». ثم يؤكد كونسيدن أن هذه ليست قصة رمزية، بل حادثة تاريخية وقعت في المدينة سنة 631م، وأن القائد هو النبي محمد ﷺ، وأن هذه الواقعة تمثل نموذجًا مبكرًا للحوار الإسلامي–المسيحي. كما ينتقد من يصفهم بـ«كارهي

---

[1] Craig aig M. Considine (2025): *Curriculum Vitae*, Rice University.

الإسلام» لِتجاهلهم هذه القصة، واعتمادهم على اقتطاع بعض الآيات القرآنية من سياقها لاتهام النبي ﷺ باضطهاد النصارى.

ومن خلال هذا العرض، يسعى كونسيدن إلى توظيف الحادثة لإبراز البعد الإنساني في سيرة النبي ﷺ، وتقديمها بوصفها دليلًا تاريخيًّا على التسامح والتعايش الديني في الإسلام المبكر، في مواجهة القراءات الانتقائية التي تُغفل سياقات النصوص والأحداث[1].

التحليل والنقد:

اتّسمت سيرة النبي محمد ﷺ بالرفق واللين في تعامله مع مختلف الفئات، ولم يُنقل عنه اضطهاد للنصارى أو لغيرهم من أتباع الديانات، بل شهد عدد من الباحثين الغربيين بسماحة منهجه وعدالة تعامله. ومن هؤلاء المستشرق الأمريكي خوان كول، الذي يؤكد أن تسامح النبي ﷺ لم يكن مقتصرًا على المسلمين، بل شمل حتى المشركين المخالفين له في العقيدة.

ويستدل كول على ذلك بالنصوص القرآنية؛ فمع أن سورة الزخرف (81–89) ترفض دعوى المشركين نسبة الولد إلى الله، فإنها تختتم بتوجيه النبي ﷺ إلى الصفح والمسالمة في قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ (الزخرف: 89)، وهو توجيه يعكس خُلُق العفو وضبط النفس رغم شدة الخلاف العقدي. كما يستشهد بالآية (108) من سورة الأنعام التي تنهى عن سبّ ما يعبده المشركون: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾، لما في ذلك من مراعاةٍ لمشاعرهم ومنعٍ لإثارة العداوة.

ويرى كول أن هذه التوجيهات تكشف عن بُعد أخلاقي وإنساني عميق في الرسالة الإسلامية، قائم على الحكمة والرحمة واحترام المخالف، وهو ما يعزّز صورة النبي ﷺ بوصفه داعيةً إلى التعايش لا إلى الإكراه[2].

لا يصحّ تفسير موقف النبي ﷺ على أنه «تفهُّم» لتعلّق المشركين بأصنامهم بمعنى الإقرار الضمني أو التساهل العقدي؛ إذ إن جوهر رسالته قام على إبطال الشرك وتقرير التوحيد الخالص. فالقرآن يقرر أن بعثة الرسل إنما كانت لتحقيق عبادة الله وحده وترك ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وهو أصل لا يقبل المساومة. وقد واجه النبي ﷺ مجتمعه بهذه الحقيقة مواجهةً واضحة، فأنكر عبادة الأصنام، وبيّن بطلانها، وصبر على ما لقيه من أذى في سبيل ذلك.

---

[1] Considine, Craig (2020). The Humanity of Muhammad: A Christian View. Blue Dome Press, p24–25

[2] كول، خوان (2021م). محمد رسول السلام وسط صراع الإمبراطوريات. ط1، ترجمة: عمرو بسيوني وهشام سمير، ص76.

وتؤكد كتب السيرة والتفسير هذا المعنى؛ فقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم، ونقله ابن كثير، أن سادة قريش قصدوا أبا طالب قبيل وفاته، وطلبوا منه أن يكفّ محمد ﷺ عن ذكر آلهتهم بسوء، مقابل أن يتركوه يعبد إلهه. فلما عُرض الأمر على النبي ﷺ، لم يقبل المساومة، بل دعاهم إلى كلمة التوحيد: «قولوا لا إله إلا الله»، وبيّن ما فيها من عزٍّ وسيادة. فلما استنكروا ذلك، أعلن ثباته بقوله المشهور: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته». وهذا النصّ يُظهر بجلاء أنه لم يكن متسامحًا مع الشرك من حيث المبدأ، بل كان حاسمًا في تقرير العقيدة.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾، فهو توجيه تربوي ينهى عن أسلوبٍ قد يفضي إلى مفسدة أعظم، وهي سبّ الله تعالى عدوانًا بغير علم، لا أنه إقرار بمشروعية عبادة الأصنام. فالفرق واضح بين رفض المعتقد الباطل رفضًا قاطعًا، وبين إدارة الخلاف بأسلوب حكيم يراعي العواقب. ومن هنا فإن قراءة خوان كول تحتاج إلى ضبطٍ أدقّ للسياق الرسالي؛ إذ جمع النبي ﷺ بين الثبات العقدي الكامل، والحكمة في الخطاب، دون أن يعني ذلك تفهّمًا لمشروعية الشرك أو قبولًا به.

ومن القواعد الشرعية التي تُبيّن منهج الإسلام في مراعاة المآلات ودرء المفاسد، ما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «ملعونٌ من سبَّ والديه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يسبّ الرجل والديه؟ قال: «يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه، ويسبّ أمَّه فيسبّ أمَّه»[1]. فهذا الحديث يدل على أن الفعل قد يكون في أصله مباحًا أو بدافع الغضب، لكنه يُمنع إذا كان يفضي إلى مفسدة أعظم، وهو عين المعنى في النهي عن سبّ آلهة المشركين؛ إذ المقصود منع ما يترتب عليه من اعتداء مقابل وازدياد في العداوة، لا إقرار الباطل أو الرضا به.

وفي الوقت نفسه، فإن رفض الإسلام للشرك لم يكن مقرونًا بالإكراه على الدخول في الدين، بل قرر مبدأ حرية الاعتقاد بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. وقد شهد بذلك عدد من الباحثين الغربيين، ومنهم المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون[2]، الذي أكد أن القوة لم تكن عاملًا في انتشار

---

[1] ابن كثير، إسماعيل بن عمر (1999م). تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط2، الرياض: دار طيبة، ج3، ص315.

[2] وُلِد غوستاف لوبون (Gustave Le Bon) في 7 مايو 1841م، وتوفي في 13 ديسمبر 1931م، وهو عالم نفسٍ اجتماعي فرنسي اشتهر بدراساته حول سيكولوجية الجماهير وتأثيرها في السلوك الاجتماعي والسياسي. حصل على درجة الدكتوراه في الطب، ثم قام بعددٍ من الرحلات العلمية إلى أوروبا وشمال إفريقيا وآسيا، وأثمرت هذه الرحلات عن مؤلفات في علم الإنسان والآثار والحضارات. ومع مرور الوقت اتجه اهتمامه إلى العلوم الطبيعية، ثم إلى علم النفس الاجتماعي، حيث ذاع صيته بكتابه «سيكولوجية الجماهير» الذي كان له تأثير واسع في الفكر الأوروبي الحديث. انظر:

الإسلام، وأن العرب تركوا الشعوب التي خضعت لهم أحرارًا في أديانهم، وأن اعتناق بعضهم الإسلام كان لما لمسوه من عدل المسلمين وسماحتهم، إضافة إلى بساطة التعاليم الإسلامية ويسرها مقارنة بما عهدوه من أنظمتهم السابقة.

وعليه، فإن الجمع بين الثبات العقدي ورفض الشرك من جهة، واحترام حرية المعتقد وحسن معاملة المخالفين من جهة أخرى، يكشف عن توازن دقيق في المنهج الإسلامي؛ فهو لا يساوم على التوحيد، ولا يجيز الإكراه في الدين، بل يقوم على الدعوة بالحكمة والعدل، مع حفظ السلم الاجتماعي وصيانة الكرامة الإنسانية[1].

ومما يعزّز هذه الحقيقة ما قرّره عدد من الباحثين الغربيين المنصفين في دراساتهم التاريخية؛ إذ يؤكد المستشرق توماس أرنولد[2] أنه لم يُعرف في تاريخ الفتوحات الإسلامية وقوعُ محاولات منظّمة لإجبار غير المسلمين على اعتناق الإسلام، ولا وجودُ اضطهادٍ منهجيٍّ يستهدف القضاء على الديانة المسيحية[3]، بل إن بقاء الطوائف المسيحية في البلاد التي دخلها المسلمون يُعدّ شاهدًا تاريخيًّا على قدرٍ كبير من التسامح الديني[4]. ويضيف أن استمرار وجود العرب المسيحيين بين المجتمعات المسلمة إلى عصره دليلٌ حيّ على هذا النهج.

Encyclopaedia Britannica, "Gustave Le Bon," Social Psychology. https://www.britannica.com/science/social-psychology

[1] لوبون، غوستاف (د.ت). حضارة العرب. القاهرة: مكتبة البابي الحلبي وشركاه، ص8.

[2] سير توماس أرنولد (Thomas Walker Arnold) (1864–1930م) كان من أبرز المستشرقين البريطانيين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. تلقّى تعليمه في جامعة كمبريدج، ثم عمل أستاذًا في جامعة عليكره بالهند (1888–1898م)، وأستاذًا للفلسفة في لاهور (1898–1904م). كما شغل منصب مساعد أمين مكتبة ديوان الهند في لندن (1904–1909م). ويُعدّ أول من تولّى كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية بمدرسة اللغات الشرقية في لندن سنة 1904م، ثم اختير عميدًا لها في المدة (1921–1930م). زار أرنولد مصر في أوائل سنة 1930م، وألقى محاضرات في الجامعة المصرية حول التاريخ الإسلامي. وقد عُرف بإعجابه بالحضارة الإسلامية وتضلّعه في دراستها، وتميّز – في نظر عدد من الباحثين – بالإنصاف في تناوله لقضايا الإسلام، حتى عُدّ مرجعًا مهمًّا في الدراسات الإسلامية. انظر: العقيقي، نجيب: المستشرقون، ج2، ص504.

[3] أرنولد، توماس (1970م). الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية. ط1، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

[4] المصدر السابق، ص98–99.

وفي السياق نفسه، ترى الباحثة الألمانية زيغريد هونكه أن العرب لم يفرضوا الإسلام على الشعوب التي خضعت لسلطانهم، وأن انتشار الإسلام لم يكن نتيجة إكراهٍ عام، بل جاء في كثير من الأحيان ثمرة احتكاك حضاري وعدلٍ في المعاملة، وانجذابٍ إلى بساطة العقيدة ومبادئها[1].

وتلتقي هذه الشهادات مع ما قرّره القرآن من نفي الإكراه في الدين، وتنسجم مع ما عُرف في التجربة التاريخية الإسلامية من إقرارٍ لأهل الذمة بحقوقهم الدينية وشعائرهم. وبذلك يتبيّن أن الجمع بين الدعوة إلى التوحيد، والثبات على المبدأ، واحترام حرية الاعتقاد، كان سمةً بارزة في المنهج الإسلامي، شهد بها بعض الباحثين الغربيين قبل غيرهم.

أما ما أورده كريج كونسيدن بشأن سماح النبي ﷺ لوفد نصارى نجران بأداء صلاتهم في مسجده، فقد أصلُه في كتب السيرة، حيث رواه ابن إسحاق بسنده، قال: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا مسجده بعد صلاة العصر، وعليهم ثياب الحِبَرات، وقد حانت صلاتهم، فقاموا يصلّون في مسجد رسول الله ﷺ، فقال: «دعوهم»، فصلّوا إلى المشرق.

وقد تعرّض الحافظ ابن رجب لهذه الرواية عند مناقشة مسألة إقرار أهل الكتاب على أداء عباداتهم في مساجد المسلمين، فذكرها بصيغة الاستدلال، ثم ناقش دلالتها الفقهية. ومحلّ النظر هنا أن الواقعة – على فرض ثبوتها – إنما تدل على واقعة عين في سياق استقبال وفدٍ جاء للمحاورة والمجادلة، وفي ظرفٍ خاص يتصل بإدارة الحوار وإظهار سعة الخلق، لا على تقرير أصلٍ عامٍّ بإطلاق.

كما أن رواية ابن إسحاق – وإن كانت مشهورة في كتب السيرة – فإنها من قبيل المراسيل عند بعض أهل الحديث، مما يقتضي النظر في درجتها من حيث الصناعة الحديثية. ومع ذلك، فإن دلالتها – إن ثبتت – تنسجم مع ما عُرف من سعة صدر النبي ﷺ في إدارة الخلاف الديني، دون أن يعني ذلك إقرارًا بعقائدهم أو تسويةً بينها وبين عقيدة التوحيد.

وعليه، فإن الاستدلال بهذه الحادثة لإثبات مبدأ «التعددية العقدية» بمعناها المعاصر يحتاج إلى تحريرٍ علمي؛ إذ الثابت أن النبي ﷺ جمع بين الثبات على عقيدة التوحيد، والحكمة في التعامل مع المخالفين، وإدارة الحوار بروحٍ منضبطةٍ بالضوابط الشرعية.

وقد قيل في هذه الرواية إنها منقطعة ضعيفة، فلا يُحتجّ بها على تقرير حكمٍ عام، إذ مدارها على ابن إسحاق، وفيها انقطاع عند بعض أهل الحديث. وعلى فرض ثبوتها، فإنها تُحمل على واقعة

---

[1] هونكه، زيغريد (د.ت). شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبا. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ص364.

عينٍ اقتضتها المصلحة في ذلك الظرف الخاص؛ فقد يكون إذنُه ﷺ لهم بالصلاة في مسجده من باب التألّف واستجلاب القلوب، ودفع النفور عن الدعوة، لا من باب الإقرار المطلق بإقامة شعائرهم في مساجد المسلمين على وجه الدوام.

ولهذا لما استقرّ أمر الدولة الإسلامية وانتفت الحاجة إلى مثل هذا التأليف، اشترط عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عقد الذمة جملةً من الشروط التي تنظّم إظهار شعائر أهل الذمة، ومن ذلك ألا يُظهروا شعائرهم على وجهٍ فيه رفعُ صوتٍ بالصلاة أو القراءة بحضرة المسلمين. ويُفهم من ذلك أن المسألة تُبنى على مراعاة المصالح والمفاسد، وتقدير الإمام بحسب حال القوة والضعف، والاحتياج إلى التأليف أو الاستغناء عنه، دون إخلالٍ بأصل الثبات العقدي أو إقرارٍ بالتسوية بين الأديان[1].

وأما ما أورده كونسيدن على لسان النبي ﷺ من قوله: «أنتم أتباع الإله الواحد الحق، فتفضلوا بالصلاة في مسجدي، كلنا إخوة في الإنسانية»، فليس له أصلٌ بهذا اللفظ في رواية ابن إسحاق ولا في غيرها من كتب السيرة المعتمدة، وإنما هو صياغةٌ أدبية استخدمها كونسيدن للتعبير عن فهمه لروح الموقف. فالنص الوارد عند ابن إسحاق يقتصر على قوله ﷺ: «دعوهم»، دون تلك العبارات التفسيرية ذات الطابع المعاصر.

ومن ثمّ، فإن إيراد هذه الجملة على أنها قولٌ تاريخيٌّ للنبي ﷺ يحتاج إلى تحريرٍ علمي، إذ ينبغي التفريق بين النصّ المروي بألفاظه في المصادر، وبين الأسلوب التحليلي أو الأدبي الذي يصوغه الباحث لتقريب المعنى إلى القارئ. ولا شك أن في ذلك توسيعًا دلاليًّا يعكس رؤية كونسيدن الإنسانية، غير أنه لا يجوز نسبته إلى النبي ﷺ على جهة النقل التاريخي الدقيق.

المبحث الثاني: تحليل آراء كونسيدن حول مناهضة الإسلام للعنصرية وترسيخ مبدأ المساواة

يرى كريج كونسيدن أن عدم المساواة العرقية والعنصرية ما تزالان تمثلان من أخطر التحديات التي تواجه البشرية المعاصرة، وأن الاهتمام بالبحث عن حلول جذرية لهاتين الظاهرتين لا يوازي حجم خطورتهما. ويتساءل في هذا السياق: ماذا يمكن أن يفعل البشر لمواجهة العنصرية والتمييز العرقي؟ ثم يطرح إجابة لافتة مفادها أن من بين الحلول الممكنة الاقتداء بالنبي محمد ﷺ، الذي يعدّه بعض الباحثين من أوائل المناهضين للعنصرية في التاريخ الإنساني[2].

---

[1] ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد (1996م). فتح الباري شرح صحيح البخاري. تحقيق: مجموعة من العلماء، ط1، المدينة النبوية: مكتبة الغرباء الأثرية (الحقوق: مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة)، ج3، ص244.

[2] Considine (2020), p. 59.

ومن خلال هذا الطرح، يسعى كونسيدن إلى إبراز البعد الأخلاقي والإنساني في السيرة النبوية، معتبرًا أن مواقف النبي ﷺ العملية، وتعاليمه القائمة على المساواة بين البشر، تمثل نموذجًا مبكرًا لمناهضة التمييز القائم على العرق أو اللون. فهو لا يكتفي بعرض الوقائع التاريخية، بل يوظّفها في إطارٍ معاصر يربط بين القيم الإسلامية الأولى والتحديات الاجتماعية الراهنة، ليقدّم شخصية النبي ﷺ بوصفها مرجعية أخلاقية يمكن الاستفادة منها في معالجة قضايا العدالة الاجتماعية اليوم.

ويمهّد كونسيدن لحديثه عن موقف النبي ﷺ من العنصرية بتحديد مفهومها في الاصطلاح المعاصر؛ إذ يرى أن من الضروري قبل دراسة آراء محمد ﷺ في مناهضة العنصرية الوقوف على تعريفها الدقيق. فينقل عن قاموس «ميريام–ويبستر» أن العنصرية هي الاعتقاد بأن العِرق يُعدّ المحدِّد الأساسي لصفات الإنسان وقدراته، وأن الفروق العرقية تفضي إلى تفوّقٍ فطريٍّ لعرقٍ معيّن على غيره[1].

ومن خلال هذا التعريف، يضع كونسيدن إطارًا نظريًا للمقارنة بين المفهوم الحديث للعنصرية، وما ورد في السيرة النبوية من مواقف وتعاليم تؤكد أن التفاضل بين البشر لا يقوم على اللون أو النسب، بل على معايير أخلاقية وروحية. فهو يمهّد بذلك لإبراز أن الرسالة الإسلامية – في تصوره – قدّمت معالجة مبكرة لمشكلة التمييز العرقي، من خلال إعادة تعريف معيار الكرامة الإنسانية على أساسٍ غير عرقي.

ويواصل كونسيدن استدلاله على مناهضة النبي ﷺ للعنصرية بالإشارة إلى علاقته ببلال بن رباح رضي الله عنه، وهو عبد حبشي سابق بلغ مكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي، حتى اختاره النبي ﷺ مؤذّنًا له. ويرى كونسيدن أن هذه العلاقة تمثل نموذجًا عمليًا لتجاوز الفوارق العرقية في المجتمع الإسلامي الأول[2].

ويستشهد في ذلك بالحادثة المشهورة التي عاتب فيها النبي ﷺ أبا ذر الغفاري رضي الله عنه، حين عيّر بلالًا بأمّه، فقال له: «يا ابن السوداء». فغضب النبي ﷺ وقال له: «أعيرته بأمّه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية». ويبيّن كونسيدن أن استعمال النبي ﷺ لمصطلح «الجاهلية» يحيل إلى القيم السائدة قبل الإسلام، والتي اتسمت – في تصوره – بأشكال من التمييز القبلي والعرقي، فجاء الإسلام ليقوّض هذه المعايير، ويعيد بناء المجتمع على أساس المساواة والتقوى.

---

[1] Ibid, p. 60.

[2] Ibid, p. 60-61.

ومن خلال هذا الموقف، يرى كونسيدن أن النبي ﷺ لم يكتفِ بالتنظير لمبدأ المساواة، بل واجه مظاهر التمييز مواجهةً مباشرة، حتى لو صدرت من بعض أصحابه، مما يعكس – في نظره – وعيًا أخلاقيًا مبكرًا بخطورة النزعات العنصرية وضرورة اجتثاثها من المجتمع.

ويتابع كونسيدن حديثه عن بلال رضي الله عنه، فيذكر أنه حظي بمكانة مرموقة بين الصحابة، حتى كانوا يلقّبونه بـ«السيد»، وأن النبي ﷺ اختاره ليكون مؤذّنًا للمسلمين، وهي وظيفة ذات رمزية دينية واجتماعية عالية، لارتباطها بإعلان أعظم شعائر الإسلام يوميًا. ويرى كونسيدن أن هذا الاختيار يحمل دلالة واضحة على رفض أي تمييز قائم على العِرق أو الأصل، وأن إسناد هذه المهمة إلى بلال – وهو من أصول إفريقية وكان عبدًا في الجاهلية – يُعدّ رسالة عملية مفادها أن الانتماء العرقي لا يجوز أن يكون سببًا في الإقصاء أو الحرمان من المناصب في المجتمع الإسلامي[1].

ومن خلال هذا التحليل، يخلص كونسيدن إلى أن السيرة النبوية تقدم نموذجًا مبكرًا لإدماج من يُعدّون أقليات عرقية في بنية المجتمع، على أساس الكفاءة والإيمان، لا اللون أو النسب، وهو ما يجعله يرى في التجربة الإسلامية الأولى إطارًا أخلاقيًا يمكن استحضاره في مواجهة التمييز العرقي في المجتمعات المعاصرة.

ويضيف كونسيدن مثالًا آخر ليؤكد – في نظره – عناية النبي ﷺ ببلال رضي الله عنه ومناهضته للتمييز العرقي، فيذكر قصةً مفادها أن أسرةً عربية جاءت تطلب من النبي ﷺ أن يرشّح لابنتهم زوجًا مناسبًا، فاقترح عليهم بلالًا، غير أنهم ترددوا بسبب لون بشرته. ويذكر أن النبي ﷺ أعاد ترشيحه أكثر من مرة، في إشارة – بحسب تفسير كونسيدن – إلى رفضه للمعايير القائمة على التفوق العرقي في اختيار الأزواج، وأن الزواج ينبغي أن يقوم على اعتبارات إنسانية وإيمانية لا على اللون أو الأصل[2].

غير أن هذه الرواية تحتاج إلى تحريرٍ من جهة التوثيق؛ إذ المشهور في كتب السنة أن بلالًا رضي الله عنه تزوّج في الشام، ولم ترد – فيما هو ثابت – قصةٌ بهذا التفصيل عن ترشيحه لأسرة عربية ورفضهم له بسبب لونه. والثابت في السنة أن معيار التفاضل في الزواج وغيره هو الدين والخلق، كما في قوله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه»، وهو معيار عام لا يختص ببلال وحده.

وعليه، فإن المعنى الذي أراد كونسيدن تقريره – وهو رفض التمييز العرقي – يتفق في الجملة مع أصول الشريعة ومقاصدها، لكن نسبة هذه القصة بعينها إلى السيرة تحتاج إلى دليلٍ ثابت. ويبقى

---

[1] Ibid, p. 61.

[2] Ibid, p. 61.

الأصل المقرر في الإسلام أن الناس سواء في أصل الكرامة الإنسانية، وأن التفاضل إنما يكون بالتقوى والعمل الصالح، لا بالعرق أو اللون أو الثقافة.

التحليل والنقد:

1. إبراز موقف النبي ﷺ من العنصرية

أحسن كريج كونسيدن في إبراز موقف النبي ﷺ من العنصرية، وفي اختياره نماذج دالة على تحريم التمييز العرقي في الإسلام؛ إذ لا فضل في الشريعة لشخصٍ بلونه أو نسبه أو صورته، وإنما معيار التفاضل هو التقوى والعمل الصالح. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13). فالآية تقرر وحدة الأصل الإنساني، وتبطل أسس التفاخر العرقي، وتربط الكرامة بمعيار أخلاقي إيماني لا بعاملٍ مادي أو عرقي.

وقد أورد القرطبي رحمه الله في تفسيره جملةً من الروايات في سبب نزول الآية، منها ما يتعلق بثابت بن قيس رضي الله عنه، حين أشار إلى رجلٍ بأمه، فبيّن له النبي ﷺ أن التفاضل لا يكون إلا بالتقوى. كما ذكر ما وقع يوم فتح مكة عندما أذّن بلال رضي الله عنه فوق الكعبة، فاستنكر بعض من بقي في نفسه أثرٌ من عصبية الجاهلية ذلك، فنزلت الآية زجرًا عن التفاخر بالأنساب والازدراء بالفقراء وأصحاب الألوان المختلفة، وتقريرًا لوحدة الأصل: «أي الجميع من آدم وحواء، وإنما الفضل بالتقوى».

وهذا المعنى تؤكده نصوص أخرى، كقوله ﷺ في خطبة الوداع: «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى». ومن ثمّ فإن ما قرّره كونسيدن من كون النبي ﷺ من أوائل المناهضين للعنصرية يجد له أصلًا راسخًا في النصوص القرآنية والنبوية، وفي التطبيق العملي الذي جسّدته السيرة في بناء مجتمعٍ تجاوز معايير اللون والنسب إلى معيار الإيمان والتقوى.[1]

2. قصة أبي ذر وبلال

وأما قصة أبي ذر وبلال رضي الله عنهما التي أشار إليها كريج كونسيدن، فقد أخرجها البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندٍ صحيح، غير أن الرواية الواردة فيهما لم تُسمِّ الشخص الذي عيّره أبو ذر، وإن كان أهل السير يذكرون أنه بلال رضي الله عنه.

ففي الصحيحين عن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر وعليه بُرد، وعلى غلامه بُرد مثله، فقلت: لو أخذت هذا فلبسته كانت حُلّة، وأعطيته ثوبًا آخر، فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت

---

[1] القرطبي، محمد بن أحمد (1964م). الجامع لأحكام القرآن. ط2، القاهرة: دار الكتب المصرية، ج16، ص341.

أمه أعجمية، فنلتُ منها، فذكرني إلى النبي ﷺ، فقال لي: «أساببتَ فلانًا؟» قلت: نعم، قال: «أفنلتَ من أمه؟» قلت: نعم، قال: «إنك امرؤٌ فيك جاهلية». قلت: على حين ساعتي من كِبَر السن؟ قال: «نعم، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يُكلِّفه من العمل ما يغلبه، فإن كلّفه ما يغلبه فليُعِنه عليه».

وهذا الحديث نصٌّ صريح في إنكار النبي ﷺ للتعيير بالعرق أو الأصل، واعتباره من بقايا أخلاق الجاهلية، وإن صدر من صحابي جليل كأبي ذر رضي الله عنه، مما يدل على أن الإسلام لم يُقرّ أيَّ شكل من أشكال التمييز العرقي. كما أنه لم يكتفِ بالنهي النظري، بل قرن ذلك بتوجيهات عملية تؤسس لمعاملة إنسانية قائمة على الأخوّة والعدل، حتى في العلاقة مع المماليك والخدم.

وعليه، فإن استدلال كونسيدن بهذه الحادثة في سياق الحديث عن مناهضة الإسلام للعنصرية استدلالٌ في محلّه من حيث الدلالة العامة، وإن كان تعيين بلال رضي الله عنه في رواية الصحيحين لم يرد نصًّا، وإنما اشتهر في كتب السيرة[1].

والتحقيق أن أصل القصة ثابتٌ في الصحيحين، لكن دون التصريح بلفظ «يا ابن السوداء» ولا بتسمية بلال رضي الله عنه في سياق الرواية المعتمدة فيهما. فقد أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن المعرور بن سويد أنه قال: رأيت أبا ذر الغفاري وعليه حُلّة، وعلى غلامه حُلّة، فسألناه عن ذلك، فقال: إني ساببتُ رجلًا فشكاني إلى النبي ﷺ، فقال لي: «أعيرته بأمه؟»... وزاد البخاري: «إنك امرؤٌ فيك جاهلية».

أما الرواية التي فيها أن أبا ذر قال لبلال: «يا ابن السوداء»، فقد جاءت في بعض الطرق الأخرى خارج الصحيحين، واشتهرت في كتب السيرة والآداب، لكنها ليست بلفظها في رواية البخاري ومسلم. وقد أشار الشيخ الألباني رحمه الله إلى هذا الفرق، فبيّن أن الحديث «صحيح بغير هذا السياق»، أي أن أصل القصة ثابت، غير أن بعض الألفاظ المتداولة ليست من نصّ الصحيحين.

وعليه، فإن الدلالة المقصودة – وهي إنكار النبي ﷺ للتعيير بالأم أو الأصل واعتباره من أخلاق الجاهلية – ثابتة بنص الحديث الصحيح، حتى دون ذكر اللفظ المشهور. وهذا يبرز ضرورة

---

[1] الحديث متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاري في الجامع الصحيح المختصر، كتاب الأدب، باب ما يُنهى من السباب واللعن، رقم (6050)، (19/8)، ط1، القاهرة: دار الشعب، 1987م. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان (أو باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس...)، رقم (1661)، (1283/3)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي. واللفظ المذكور هو لفظ البخاري.

التحرير العلمي في نسبة الألفاظ إلى مصادرها، مع بقاء المعنى العام الذي استدل به كونسيدن صحيحًا من حيث بيان موقف الإسلام الحاسم من العصبية والتمييز العرقي[1].

3. قصة زواج بلال

وأما قصة زواج بلال رضي الله عنه التي أوردها كونسيدن بهذا التفصيل، فلم أقف عليها في المصادر المعتمدة. والمشهور ما ذكره الذهبي أن بلالًا وأخاه أبا رويحة خطبا من قومٍ من خولان، وقالا: «كنا كافرين فهدانا الله، ومملوكين فأعتقنا الله... فإن تزوجونا فالحمد لله، وإن تردّونا فلا حول ولا قوة إلا بالله»، فزوّجوهما.

وهذه الرواية لا تتضمن ما ذكره كونسيدن من ترشيح النبي ﷺ له ورفض الأسرة بسبب لونه، مما يدل على ضرورة التثبت من تفاصيل القصة، مع بقاء الأصل المقرر في الإسلام أن التفاضل يكون بالدين والتقوى لا بالعرق أو اللون[2].

وأما ما ذكره كونسيدن من أن بلالًا رضي الله عنه كان يُنادى بـ«السيد» تقديرًا لمكانته بين الصحابة، فإن لهذا المعنى أصلًا ثابتًا في السنة؛ فقد روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: «أبو بكر سيدُنا، وأعتق سيدَنا»، يعني بلالًا.

فهذا النصّ يدل دلالة واضحة على علوّ منزلة بلال رضي الله عنه في المجتمع الإسلامي الأول، حتى وصفه عمر – وهو من هو في الفضل والمكانة – بالسيد، لا على سبيل المجاملة، بل اعترافًا بفضله وسابقته. وفي ذلك إشارة عملية إلى أن معيار الكرامة في الإسلام لم يكن اللون ولا الأصل، وإنما الإيمان والجهاد والسابقة في الدين[3].

المبحث الثالث: رؤية كريج كونسيدن لمكانة طلب العلم في الإسلام

خصّص كريج كونسيدن الفصل الرابع من كتابه للحديث عن طلب العلم (Seeking Knowledge)، مبرزًا المكانة الرفيعة التي يحتلها العلم في الإسلام. وينقل في هذا السياق عن محمد حسين أن طلب العلم يُعدّ قيمة مركزية في المنظور الإسلامي، وقد حثّ عليه القرآن الكريم والسنة النبوية حثًّا متكررًا. ويشير إلى أن القرآن وصف الله تعالى بـ«العليم» في مواضع كثيرة، مما يدل على ارتباط العلم بالصفات الإلهية الكاملة.

---

[1] الألباني، محمد ناصر الدين (1405هـ). غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام. ط3، بيروت: المكتب الإسلامي، ص188.

[2] الذهبي، محمد بن أحمد (1985م). سير أعلام النبلاء. ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة، ج1، ص358.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (3754)، ج5، ص33.

كما يستدلّ كونسيدن بأن أول ما نزل من الوحي على النبي ﷺ سنة 610م كان قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1–5)، في إشارة دالة – بحسب تحليله – إلى أن الرسالة الإسلامية افتتحت بالأمر بالقراءة والتعلّم، مما يعكس البعد المعرفي في تأسيس الحضارة الإسلامية.

ويضيف أن القرآن يؤكد كذلك رفعة أهل العلم، كما في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: 11)، وهو نصّ يربط بين الإيمان والعلم، ويجعل من المعرفة سببًا للرفعة في الدنيا والآخرة. ومن خلال هذه النصوص، يرى كونسيدن أن الإسلام قد أرسى أساسًا معرفيًّا قويًّا، جعل من طلب العلم ركيزة في بناء الفرد والمجتمع.

وقد استدلّ كونسيدن بأحاديث نبوية تؤكد منزلة العلم في الإسلام، منها قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1]، ومعناه صحيح تؤيده نصوص كثيرة، وقوله ﷺ: «فضلُ العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» (أخرجه أبو داود)[2]، وقوله: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة» (أخرجه الترمذي)[3].

وتدل هذه الأحاديث على أن طلب العلم عبادةٌ عظيمة، وأنه سببٌ لرفعة الدرجات في الدنيا والآخرة، مما يبرز مكانته المحورية في الإسلام.

ومن الأحاديث المشتهرة في هذا الباب قولُه ﷺ: «اطلبوا العلم ولو في الصين»[4]، وقد شاع الاستدلال به على الحثّ على طلب العلم ولو بَعُدَت الديار. غير أن أهل الحديث بيّنوا أن هذا اللفظ لا يثبت مرفوعًا إلى النبي ﷺ، بل هو ضعيف الإسناد عند جمهورهم.

ومع ذلك، فإن ضعف هذا الحديث لا يقدح في أصل المعنى الذي تؤكده نصوصٌ صحيحة كثيرة في فضل العلم والسعي إليه، كما أن التاريخ الإسلامي يشهد بعراقة الحركة العلمية في مختلف المجالات[5]، من علوم الشريعة إلى الطب والفلك والرياضيات وغيرها. ومن ثمّ، فالعناية بالعلم في الحضارة الإسلامية ثابتة بالنصوص الصحيحة وبالواقع التاريخي، دون حاجةٍ إلى الاستناد إلى حديثٍ مختلفٍ في صحته.

---

[1] صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني (ت 1420هـ)، بيروت: المكتب الإسلامي، ج2، ص727.

[2] جزء من حديث أخرجه أبو داوود في سننه باب الحث على طلب العلم رقم الحديث 3641، (354/3).

[3] أخرجه الترمذي في سننه، باب فضل طلب العلم، رقم الحديث: 2646، (28/5)، وصححه الألباني.

[4] حكم عليه الألباني بالوضع في ضعيف الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، رقم (906)، (129/1)، بيروت: المكتب الإسلامي.

[5] Considine (2020), p. 65–66.

ويرى كونسيدن أن بعض الناس يتجاهلون مكانة العلم في التراث الإسلامي، وكذلك الإسهامات الكبيرة التي قدّمها المسلمون للحضارة العالمية. ويؤكد أن الحقائق التاريخية تثبت دور المسلمين في تطوير علوم متعددة، وأن إنكار هذه المساهمات أو التغافل عنها يُعدّ نوعًا من تجاهل الحقائق التاريخية، مما يستدعي إعادة إبراز البعد العلمي الأصيل في الحضارة الإسلامية[1].

ويشير كونسيدن إلى أن من أبرز إسهامات المسلمين الحضارية ما وقع في الأندلس منذ القرن الثامن الميلادي، حيث نشط العلماء المسلمون في ترجمة التراث الفلسفي اليوناني إلى العربية، وحفظه ودراسته وتطويره، في وقتٍ كانت فيه كثير من هذه المؤلفات مفقودة أو غير متداولة في أوربا. ويرى أن هذا الجهد العلمي أسهم لاحقًا في انتقال أفكار سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى أوربا عبر الترجمات اللاتينية، مما مهد الطريق لنهضة فكرية كان لها أثرٌ في بواكير عصر النهضة ثم عصر التنوير. وبذلك يعدّ كونسيدن حركة الترجمة والبحث العلمي في الحضارة الإسلامية حلقةً رئيسة في سلسلة التطور المعرفي العالمي[2].

ويقول كونسيدن:"وفي العصر العباسي شكل المسلمون طليعة الحضارة العالمية وخلال هذه الفترة أصبح العالم الإسلامي المركز الفكري الذي لا مثيل له للعلوم والفلسفة والطب والتعليم، حيث دافع العباسيون عن قضية المعرفة من خلال إنشاء دار الحكمة في عاصمتهم بغداد.. وبحلول القرن التاسع أصبحت بغداد المركز الفكري للعالم المتحضر"[3].

ويضيف كونسيدن أن ازدهار الحركة العلمية في العالم الإسلامي لم يقتصر على بغداد، بل امتدّ إلى حواضر أخرى، فبحلول القرن العاشر يُذكر أن قرطبة كانت تضم عشرات المكتبات، ويُنسب إلى أكبرها احتواؤها على مئات الآلاف من الكتب. كما تُروى أخبار عن ضخامة مكتبات القاهرة، وعن مكتبة طرابلس التي قيل إنها ضمّت عددًا هائلًا من المخطوطات قبل أن تتعرّض للتدمير خلال الحروب الصليبية[4].

ويريد كونسيدن من خلال هذه الأمثلة إبراز حجم العناية بالكتاب والعلم في الحضارة الإسلامية، وأن انتشار المكتبات وكثرة المصنّفات يعكسان مستوىً متقدمًا من الوعي المعرفي والتنظيم العلمي، مما يؤكد أن الاهتمام بالعلم كان ظاهرة حضارية عامة، لا جهدًا فرديًّا معزولًا.

ويشير كونسيدن كذلك إلى أن القاهرة شكّلت عبر القرون مركزًا علميًّا بارزًا في العالم الإسلامي، استقطب العلماء والطلاب من مختلف الأقاليم. ويذكر أن الجامع الأزهر تأسس في العصر الفاطمي

---

[1] Ibid, p. 66.

[2] Ibid, p. 67.

[3] Ibid, p. 67

[4] Ibid, p. 68.

سنة 970م، ثم ازدهر دوره العلمي في العصور اللاحقة، ولا سيما في عهد المماليك، حتى غدا من أهم معاهد التعليم في العالم الإسلامي. كما يبيّن أن الأزهر والقاهرة عمومًا استقبلا عددًا من العلماء الذين نزحوا من الأندلس بعد سقوط مدنها تباعًا في يد القشتاليين، وما صاحب ذلك من تراجعٍ للمؤسسات العلمية هناك. ومن خلال هذا العرض، يؤكد كونسيدن استمرار الحيوية العلمية في المراكز الإسلامية، وانتقالها جغرافيًّا تبعًا للتحولات السياسية، مع بقاء الاهتمام بالعلم عنصرًا ثابتًا في البنية الحضارية الإسلامية[1].

ويواصل كونسيدن إبراز إسهامات المسلمين الحضارية، فيشير إلى ابن خلدون بوصفه من أعظم المؤرخين ومؤسسي علم الاجتماع في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ويرى أن أفكاره – ولا سيما في «المقدمة» – كان لها أثرٌ في تطور الفكر التاريخي والاجتماعي في أوربا، حتى عُدّ عند بعض الباحثين من الرواد الذين مهّدوا لنهضة الدراسات الاجتماعية الحديثة.

كما يتناول إسهامات المسلمين في الطب، فيذكر أن البيمارستانات – مثل ما أُنشئ في عهد أحمد بن طولون في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي – كانت مؤسسات طبية مفتوحة للرجال والنساء، وللفقراء، ولمختلف الطوائف الدينية، ويُقال إنها من أوائل المؤسسات التي اعتنت بمرضى الاضطرابات النفسية. ويشير كذلك إلى أبي القاسم الزهراوي، الذي ألّف موسوعة طبية جراحية مصوّرة أصبحت مرجعًا مهمًّا في أوربا لقرون، وإلى ابن النفيس الذي وصف الدورة الدموية الرئوية قبل ويليام هارفي بعدة قرون. كما يذكر أن تقنية التلقيح ضد بعض الأمراض عُرفت في الدولة العثمانية، وانتقلت إلى أوربا في القرن الثامن عشر عبر الليدي مونتاجو.

ومن خلال هذه الأمثلة، يؤكد كونسيدن أن المسلمين لم يكونوا مجرد ناقلين للمعرفة، بل أسهموا في تطويرها وإضافة الجديد إليها، وأن تأثيرهم في مسار الحضارة العالمية كان عميقًا وممتدًا في مجالات متعددة، خاصة في العلوم الطبية والاجتماعية[2].

ويشير كونسيدن كذلك إلى إسهامات المسلمين في علم الكيمياء، مبينًا أنهم ابتكروا عددًا من الأدوات والطرائق التي لا يزال أثرها حاضرًا في المختبرات الحديثة. ويخصّ بالذكر جابر بن حيان في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، الذي يُعدّه كثير من الباحثين من رواد علم الكيمياء؛ إذ أسهم في نقل الممارسات القديمة من إطار «الخيمياء» النظري إلى منهجٍ تجريبي قائم على الملاحظة والتجربة، ومن أبرز ما ارتبط باسمه تطوير أساليب التقطير، وهي عملية فصل السوائل اعتمادًا على اختلاف درجات غليانها.

---

[1] Ibid, p. 69.

[2] Ibid, p. 69–70.

ويختم كونسيدن عرضه بالتأكيد على أن النماذج التي ذكرها – في الفلسفة والطب والعلوم الاجتماعية والكيمياء وغيرها – لا تمثل إلا جزءًا يسيرًا من الإسهامات الواسعة التي قدّمها العلماء المسلمون للحضارة الغربية والإنسانية عمومًا، مشددًا على أن تجاهل هذه الحقيقة يُفضي إلى قراءة منقوصة لتاريخ التطور العلمي العالمي[1].

التحليل والنقد:

1. يُعدّ هذا الفصل من أكثر فصول الكتاب إنصافًا للإسلام؛ إذ أبرز كونسيدن إسهامات العلماء المسلمين في نهضة أوربا والحضارة العالمية، فذكر سبقهم في مجالات الفلك والكيمياء والطب، مستشهدًا بالزهراوي في الجراحة، وابن النفيس في اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، وجابر بن حيان في تأسيس المنهج التجريبي في الكيمياء. ولم يمنعه انتماؤه الديني من الإشارة إلى ما تعرّضت له مكتبات المسلمين من إحراقٍ وتدميرٍ خلال الحروب الصليبية، مما يعكس قدرًا من الموضوعية في الطرح.
2. الإسلام دينُ علمٍ وعقل، حارب الخرافة والكهانة، وفتح المجال للطب والعلاج القائم على الأسباب. وقد أشار العقاد إلى أن الإسلام أبطل المداواة بالسحر والشعوذة، ولم يُنشئ طبقة دينية تحتكر العلاج، بل أقرّ التداوي واستشارة الأطباء، مما يدل على انفتاحه على المعرفة النافعة[2].
3. دعوة النبي ﷺ إلى طلب العلم تؤكد أن الإنسان لا ينبغي أن يبقى أسير الجهل، بل عليه السعي الدائم لاكتساب المعرفة، باعتبارها سبيلًا للرقي الفردي والمجتمعي.
4. القرآن الكريم يحفّز على التفكر والتدبر في الكون والأنفس، مما يدل على أن الإسلام لا يدعو إلى الإيمان الأعمى، بل إلى الإيمان القائم على الفهم والتأمل والنظر.
5. طلب العلم في الإسلام عامٌّ للرجال والنساء؛ فالنبي ﷺ لم يحصره في فئة دون أخرى، ويدخل النساء في عموم قوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، مما يعكس مبدأ العدالة وتكافؤ الفرص في تحصيل المعرفة.
6. لا ينفصل العلم في الإسلام عن واقع الحياة، بل يشمل العلوم الدينية والدنيوية النافعة، كالطب والفلك والزراعة وسائر ما يسهم في عمران الأرض وتحسين جودة الحياة، وهو ما يكشف البعد الحضاري في الرسالة الإسلامية.

---

[1] Ibid, p. 71.

[2] العقاد، محمود عباس (2013م). أثر العرب في الحضارة الأوروبية. القاهرة: كلمات للترجمة والنشر، ص34.

7. العلاقة بين العلم والدين في الإسلام علاقة تكامل؛ فالعلم وسيلة لفهم آيات الله الكونية والشرعية، وهو طريق للتقرب إليه، لا مجالًا للصراع بين الإيمان والمعرفة.

8. تقدير النبي ﷺ للعلماء ظاهر في قوله: «العلماء ورثة الأنبياء»، مما يرسّخ مكانة أهل العلم بوصفهم حملة الرسالة ومصابيح الهداية في الأمة.

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة يتبيّن أن قراءة كريج كونسيدن لإنسانية النبي محمد ﷺ تمثل نموذجًا معاصرًا لمحاولة فهم الإسلام بعيدًا عن الصور النمطية السائدة في بعض الأوساط الغربية. فقد أبرز من خلال كتابه قيم الحوار، ومناهضة العنصرية، وتعظيم شأن العلم، بوصفها مرتكزات أصيلة في السيرة النبوية. كما أظهر البحث أن كثيرًا من استدلالاته يجد له أصلًا راسخًا في القرآن الكريم والسنة النبوية، مع ضرورة التحرير العلمي لبعض الروايات والتفاصيل التاريخية. وأكدت الدراسة أن الرسالة الإسلامية جمعت بين الثبات العقدي والانفتاح الإنساني، وبين الدعوة إلى التوحيد واحترام كرامة الإنسان. كما كشفت عن أثر هذه القيم في التأثير في بعض المفكرين الغربيين المعاصرين. ومن ثمّ، فإن إبراز الجوانب الإنسانية في السيرة النبوية يسهم في تعزيز الحوار الحضاري وتصحيح المفاهيم، ويؤكد عالمية الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان.

1. تعزيز مبدأ الحوار ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن:

يبرز من خلال عرض كونسيدن لقصة وفد نجران تركيزه على قيمة الحوار في السيرة النبوية، وهو ما ينسجم مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: 46). فقد قدّم النبي ﷺ نموذجًا عمليًا للحوار القائم على الاحترام وبيان الحق بالحكمة، دون تنازلٍ عن الثوابت العقدية، مما يعكس بُعدًا إنسانيًا مؤثرًا حتى في باحثٍ نصراني مثل كونسيدن.

2. محاربة العنصرية وترسيخ المساواة:

عدّ كونسيدن النبي ﷺ من أوائل المناهضين للتمييز العرقي، مستشهدًا بمواقف السيرة، ومنها مكانة بلال رضي الله عنه. ويُظهر هذا الطرح أن الإسلام أرسى مبدأ المساواة بين البشر، وجعل التفاضل بالتقوى لا بالعرق أو النسب، في رسالةٍ إنسانية تتجاوز الحواجز الاجتماعية.

3. طلب العلم وتطوير العقل الإنساني:

يرى كونسيدن أن الحثّ على طلب العلم يمثل ركيزة في بناء الإنسان في الإسلام، وأن دعوة النبي ﷺ إلى التعلم – في شؤون الدين والدنيا – تعبّر عن رؤية شاملة تهدف إلى تحرير الإنسان من الجهل والارتقاء به فكريًا وحضاريًا، بما ينعكس على نهضة المجتمع وتقدّمه.

4. تأثير القيم الإسلامية في الفكر النصراني المعاصر:

تأليف كونسيدن كتابًا حول «إنسانية محمد ﷺ» يدل على تأثره بالقيم التي عرضها الإسلام، وإعجابه بما وجده من عدلٍ ومساواة وحوار. وقد صرّح بأن مواجهة قضايا كالعنصرية يمكن أن تستلهم من سيرة النبي ﷺ، مما يعكس أثر هذه القيم خارج الإطار الإسلامي.

5. صلة التعاليم النبوية بالتحديات المعاصرة:

لم يكتفِ كونسيدن بعرض وقائع تاريخية، بل ربطها بقضايا العصر، مثل التمييز العرقي وأهمية التسامح، مؤكدًا أن تعاليم النبي ﷺ ما تزال صالحة لمعالجة مشكلات الإنسان المعاصر، وهو ما يعزّز عالمية الرسالة الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد (1996م). فتح الباري شرح صحيح البخاري. ط1، المدينة المنورة: مكتبة الغرباء الأثرية.
2. ابن كثير، إسماعيل بن عمر (1999م). تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط2، الرياض: دار طيبة.
3. أبو داود، سليمان بن الأشعث (د.ت). سنن أبي داود. بيروت: دار الكتاب العربي.
4. أرنولد، توماس (1970م). الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية. ط1، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
5. الألباني، محمد ناصر الدين (1405هـ). غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام. ط3، بيروت: المكتب الإسلامي.
6. الألباني، محمد ناصر الدين (د.ت). صحيح الجامع الصغير وزياداته. بيروت: المكتب الإسلامي.
7. الألباني، محمد ناصر الدين (د.ت). ضعيف الجامع الصغير وزياداته. بيروت: المكتب الإسلامي.
8. الأنصاري، فريد (1417هـ). أبجديات البحث في العلوم الشرعية. ط1، الدار البيضاء: منشورات الفرقان.
9. البخاري، محمد بن إسماعيل (1987م). الجامع الصحيح المختصر. ط1، القاهرة: دار الشعب.
10. الترمذي، محمد بن عيسى (د.ت). سنن الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

11. دويدي، رجاء (1421هـ). البحث العلمي: أساسياته النظرية وممارساته العملية. ط1، بيروت: دار الفكر.

12. ديورانت، وِل (1988م). قصة الحضارة. ترجمة: زكي نجيب محمود وآخرين، بيروت: دار الجيل.

13. الذهبي، محمد بن أحمد (1985م). سير أعلام النبلاء. ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة.

14. العقاد، محمود عباس (2013م). أثر العرب في الحضارة الأوروبية. القاهرة: كلمات للترجمة والنشر.

15. العقيقي، نجيب (1964م). المستشرقون. ط3، القاهرة: دار المعارف.

16. القرطبي، محمد بن أحمد (1964م). الجامع لأحكام القرآن. ط2، القاهرة: دار الكتب المصرية.

17. كول، خوان (2021م). محمد رسول السلام وسط صراع الإمبراطوريات. ط1، ترجمة: عمرو بسيوني وهشام سمير.

18. لوبون، غوستاف (د.ت). *حضارة العرب*. القاهرة: مكتبة البابي الحلبي وشركاه.

19. مسلم، مسلم بن الحجاج (د.ت). المسند الصحيح المختصر. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

20. هونكه، زيغريد (د.ت). شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبا. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

21. Considine, Craig (2020). The Humanity of Muhammad: A Christian View. Blue Dome Press.